العدد الثامن
آب (اغسطس)
السنة الثامنة
No. 8 - Août 1960
8ème année

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

القومية العربية والوجوديون !

بقلم رجاء النقاش

المهمة التاريخية الكبرى التي اخذها على عاتقه الكاتب والفيلسوف الكبير جان بول سارتر هي انه وقف منذ اواخر الحرب العالمية حتى اليوم ليقدم أقسى وأروع نقد « للاديب » بشكل عام ، فقد كان الاديب دائما يبحث عن الجمال قبل ان يبحث عن الهدف ، وقد استطاع سارتر ان يضع يده على هذين العنصرين في تكوين الادب ، ثم قلب القضية الشائعة التي تقول « ان الجمال أولا » وجعل منها « الهدف أولا ثم ياتي الجمال بعد ذلك في الدرجة الثانية » . وقد تبدو هذه القضية قديمة وسابقة على وجود سارتر بكثير ، لكن الجديد في موقف سارتر انه الح على قضيته الحاحا كبيرا ، ووضحها وكشف أهميتها وخطرها ، ثم انتقل هو نفسه من أديب باحث عن الجمال الى أديب باحث عن الحق ، واعلن عداءه « للادب الشعري الخالص » واخذ يدعو « الى ادب يؤدي الى عمل أخلاقي واجتماعي وسياسي بين البشر ... ادب غايته بكل بساطة الاتصال بالآخرين عن طريق استعمال وسائل الاتصال استعمالا متواضعا » ثم يلخص موقفه فيقول « ان المسئولية والصدق ياتيان اولا . والاسلوب والجمالية في المحل الثاني » ثم يقول تلك العبارة القوية الواضحة التي تتجه بعنف الى هؤلاء الذين يعبدون الجمال على حساب الحقيقة :

« ليست القضية هي اشعال حرائق في أعشاب اللغة ، ولا تزويج كلمات يحرق بعضها بعضا ولا ادراك المطلق باحراق القاموس » .

وما اكثر حاجة ثقافتنا العربية الى ان ننقل اليها « درس سارتر » ونفهمه ونستفيد منه ... والمسألة لا تعني انتقالا سهلا يسيرا من الاهتمام بالجمال الى الاهتمام بالقضايا السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، فالمفروض ان يكون الاديب ناضجا ، والا يتخلى كلية عن الاهتمام بالجمال الادبي بل عليه ان يستخدمه كوسيلة للوصول الى هدفه ... بدلا من جعله هدفا في ذاته .

ان دعوة الاديب الى ان يستفيد من « روح العلم » والوضوح والتمدد والسيطرة على الالفاظ ، وان يستفيد من « روح النضال » الايجابية وعدم التعفف عن النزول الى ميدان القضايا الواقعية الراهنة ... هذه الدعوة هي خلاصة افكار سارتر هي ما نحن في أمس الحاجة اليه اليوم.

وعندما علقت في عدد سابق على مقال القومية العربية والحياة للشاعرة الموهوبة نازك الملائكة ، لاحظت انها تقدم في مقالها « أفكار شعرية » اذا صح التعبير ، وان هذه « الافكار الشعرية » فقيرة من الناحية الموضوعية لانها لا تقدم سوى الضباب والبخور ... لقد كان مقال نازك في نظري مثالا للمنهج الذي يقول : الجمال أولا والحقيقة بعد ذلك ، وقلت هذا الكلام لنازك فكان ردها بالعدد الماضي في مقال لها بعنوان « القومية العربية والمتشككون » .

ولقد كشفت نازك في مقالها الثاني عن أفكار محددة وموضوعية ،وقد أقنعتني هذه الافكار ان شكي في قيمة مقالها الاول كان مفيدا ... لانها عندما خرجت من ضباب الشعر ، الى ضوء الموضوعية قدمت أفكارا عن القومية العربية أعتقد انها من اكثر الافكار خطأ وأكثرها حاجة الى التعديل ، وانا لا اكره الجمال الادبي في ذاته ، ولكنني كنت اخاف دائما ان يكون وراء هذا الجمال افكار مثل افكار نازك التي عرضتها في مقالها الاخير ... وللاسف كان ظني صادقا !

وسأبدأ الحديث عن نقطتين هامتين اثارتهما نازك في مقالها الاخير ثم أتحدث بعد ذلك عن افكار ثانوية اخرى وردت في المقال .

تقول نازك ـ وهذه هي النقطة الاولى التي أريد ان أناقشها : « اسمح لي أن اسجل احتجاجي على اعتبارك القومية العربية « عقيدة » ان ذلك يقلل من قيمتها وينزل بها الى مستوى الاشياء العارضة المتبدلة ، ذلك ان من السهل ان تستبدل العقائد بين يوم وليله . العقائد تخضع للثقافات ، والاهواء ، والنمو الفكري للانسان ... انها مكتسبة لا أصيلة »

ان نازك الملائكة تنفر نفورا واضحا من اعتبار القومية العربية عقيدة ، والحقيقة هي أنها اولا وقبل كل شيء عقيدة ، وهي عقيدة على وجه الخصوص في هذه المرحلة من تاريخنا ... عقيدة تتفتح كل يوم ، وتضيف الى غيرها من الافكار وتأخذ منها ... والعقيدة هي أرقى صورة للمشاعر الانسانية ، وهي الصورة الايجابية لهذه المشاعر ... فالشعور بكراهية الظلم ، والشعور بحب العدل ، والشعور بالكرامة ... كل هذه

المشاعر موجودة في تاريخ الانسان منذ زمان قديم ، ولكن هذه المشاعر كلها لم تصبح ذات قيمة في الحياة الا بعد ان تحولت الى عقائد ، فالانسان الذي يحمل في قلبه شعورا ضد الظلم هو محارب بدون سلاح ، أما الانسان الاشتراكي فهو المحارب الذي يملك سلاحا قويا في يده ... لقد تحول شعوره ضد الظلم الاجتماعي الى عقيدة واضحة ، واصبح قادرا على ان يكون ايجابيا وعلى أن يغير العالم الذي لا يعجبه، وبقية المشاعر الانسانية الاخرى لم تغير العالم أبدا الا بعد ان تحولت الى عقائد ، ولقد بذلت البشرية جهدا كبيرا قاسيا للوصول الى عقائدها الايجابية الفعالة ، فتوصلت الى الاديان اولا . واستطاع محمد ان يقلب المجتمع العربي بعد ان عاش في الغار سنوات طويلة يدرس ويتأمل ويفكر في الطريقة الايجابية التي يمكن ان يحول بها شعور الفقراء والمضطهدين في مجتمع العرب الى عقيدة تقدم القوانين التي تمنع الظلم والاضطهاد ، ولم يستطع محمد ان يغير المجتمع العربي بمجرد شعوره الغائم الغامض ، بل بعقيدته المحددة الواضحة ، ومن قبل ذلك قام المسيح بدوره في التغيير والتعديل عندما بلور مشاعره في عقيدة مناسبة للعصر وللمشاكل التي كان يلقاها الانسان في مجتمع ذلك الحين ، وقد توصل الانسان العصري الى كثير من العقائد الاساسية التي تحكم عصرنا وترفعه على غيره من العصور السابقة ، وذلك بعد دماء كثيرة بذلها الثوار في كل منطقة من مناطق العالم ، وبعد ليال مضنية سهرها علماء كبار كانوا يفكرون باخلاص في مصير الانسان ويحاولون بلورة مشاعرهم النبيلة التي تطمح الى تحقيق السعادة الانسانية في عقائد علمية منظمة ... هكذا توصل الناس الى عقيدة الديموقراطية ، وتوصلوا الى عقيدة الاشتراكية وتوصلوا الى حق تقرير المصير والى منع المتاجرة بالرقيق.

وعندما تحولت المشاعر الى عقائد بدأت هذه المشاعر تخرج من سلبيتها وتغير العالم . صحيح ان العقائد بهذا الشكل تعتبر شيئا اكتسبه الانسان بعد جهد وكفاح ، ولكن هل ينقص « الاكتساب » من قيمة العقيدة وأهميتها ؟... تقول نازك : نعم ان الشيء المكتسب لا قيمة له فهو متغير متقلب ولذلك فهي تضيق على القومية العربية بان تصبح عقيدة ، أي شيئا مكتسبا قابلا للتغيير .

أقول لنازك اولا : ان الاكتساب ليس دائما نقيضا للاصالة ، بل على العكس تماما ، فكثير من الاشياء المكتسبة تصبح عظيمة رائعة في تاريخ الانسان ، فالتعليم نوع من الاكتساب ، والكونت الاقطاعي ليون تولستوي اكتسب عن طريق الثقافة والجهد وتهذيب النفس ونقد الذات حبا عميقا للفلاحين وكراهية كبيرة لما ورثه من أهله من صفات الاقطاعيين والنبلاء والسادة ، فتنازل عن أرضه ، وهاجم نظام الامتلاك هجوما عنيفا ، ووقف ضد اسرته موقفا قاسيا ، ولم يتم له ذلك منذ اللحظة الاولى في الحياة، بل تم بعد ان تجاوز الخمسين ، اي بعد دراسة وتدريب ... بعد اكتساب .. وعمر بن الخطاب ، الرجل العنيد الارستقراطي الذي يتباهى بقوته وجاهه تحول بتدريب نفسه، وبصفات اكتسبها الى محارب قوي من اجل عقيدة آمن بها ، لقد تحول العنيد فيه الى متواضع ، وتحول المتباهي المزهو الى انسان قاس على نفسه وعلى مشاعره الطبيعية، وانتصرت صفاته المكتسبة وسجلت في التاريخ صفحات مشرفة .... والاشياء المكتسبة ايضا في حياة المجتمعات لم تكن تافهة ولا عارضة.. لقد قال لنا الاستعمار عن الاقليم الجنوبي في الكتب التي كنا ندرسها في مدارسنا : ان بلادكم زراعية ولا يمكن ان تكون غير ذلك ... وكان التاريخ يؤيدهم فمنذ آلاف السنين ومصر بلد للفلاحين الذين يعيشون على الزراعة ... ولكننا الآن نتحدى كتب الاستعمار ونتحدى آلاف السنين القديمة ، وماء النيل الذي كنا نزرع به بقعة من الارض اصبحنا نستخرج منه الكهرباء ، وسيناء المهجورة التي لا قيمة لها لانها جبل ورمل زحفت اليها كتائب من العمال العرب تستخرج منها البترول والمنجنيز ، وكم هناك من فدائيين وشهداء يقاومون قسوة الطبيعة ، لتتغير مجتمعهم ، ويصبح ـ عن طريق الاكتساب ـ مجتمعا صناعيا تطغى فيه اصوات المصانع على اصوات الجداول .

وشيء اخر عن قضية « الاكتساب » :

ان « الفكرة القومية » في طبيعتها تحتاج الى ان تخضع الى عملية اختيار وتنقية واضافة وتعديل ... ألم يكن هتلر الذي اراد ان يعتدي على العالم كله ، قوميا المانيا يلتهب حماسا لقوميته ، وينادي مجد المانيا وروح المانيا ، حتى لقد احال بلاده الى قوة ملتهبة غريبة .. ثم انهار كل شيء ... لماذا ؟... لانه لم يختر من عناصر الشعور القومي ما هو سليم وصحيح ، ولم يضف الى قوميته معنى انسانيا واحدا ، ولم يهذب قوميته من الانانية والتعصب والاستعلاء ... لم يجعل منها عقيدة سامية .

ونحن عندما نتكلم اليوم عن القومية العربية بمعناها العقائدي ، انما نتكلم عن الشعور القومي بعد أن تم صقله وتهذيبه والاضافة اليه . لقد خلصناه من التعصب للعرق ، ذلك التعصب الذي تكمن بذوره في كل شعور قومي ، فالقومية العربية ـ بمعناها العقائدي ـ قومية انسانية تحنو على الاقليات وتتعاون مع القوميات الاخرى بصدر واسع مسامح .. ان القومية العربية قد اكتسبت بعض الصفات الجديدة ، وتخلصت من بعض الصفات القديمة ... وهي لهذا ناضجة قوية .

ثم ما رأي نازك فيما يقوله علماء « البيولوجي » : من ان الصفات المكتسبة في الانسان تصبح وراثية في اولاده ؟..

فالاكتساب ، ليس كما تفهمه شاعرتنا نازك الملائكة : شيئا تافها عرضيا ... بل هو على العكس من ذلك لو فهم على صورته الصحيحة انه دليل راق على عمق الانسانية وعظمتها ... فالانسان ينتقل من السيء الى الافضل عن طريق الاكتساب ، والجماعات تنتقل من الضعف الى القوة عن طريق الاكتساب ... وهكذا .

واقول لنازك بعد ذلك : انها تخلط بين التغير والتطور ، ان العقائد الكبرى في تاريخ الانسان لم تتغير ، بل تطورت واكتسبت اشياء جديدة نتيجة للتغيرات التي حدثت في العالم ... ان التغير والذوبان ، شيء غير التطور والنمو ... فروح العدل والدعوة الى المساواة هي الفكرة الاساسية في الاديان الكبرى ، وهي نفسها الفكرة الجوهرية في اديان العصر الحديث مثل : الديموقراطية والاشتراكية وتقرير المصير .

ولذلك فلا خوف على العقيدة الكبيرة الناضجة من التغير ، انها تتطور ولا تزول ... والقومية العربية عندما تصبح عقيدة فلا خطر عليها ، لانها في الواقع ترتفع من مجرد الشعور الكامن في النفوس ... الشعور السلبي ... الى صورة اخرى ايجابية تتطور وتنمو ، ولا تتغير وتتلاشى .. وفي اللحظة التي تصبح فيها القومية العربية عقيدة ناضجة سليمة ، فانها تستطيع ان تغير كل الوقائع التي تتناقض تناقضا صارخا مع القومية العربية ، فالقومية العربية لها ، وعلى الاخص في هذه المرحلة وظيفة تاريخية ينبغي ان تؤديها ، ولن تستطيع تاديتها لو بقيت مجرد شعور ... بل لا بد ان تصبح عقيدة منظمة واعية : نابعة من الشعور القومي وخاضعة للاختيار والاكتساب والمرونة التي هي دليل الحياة

وليست دليل الضعف والانهيار .

فهل تريد نازك للقومية العربية ان تظل في منطقة بدائية من الشعور العربي ... وتأبى عليها ان تكون عقيدة ناضجة منظمة ، تناولتها يد التهذيب وحددت وظيفتها واكسبتها عناصر جديدة : عقول مفكرة منظمة؟ ... هل تريد نازك للقومية العربية ان تظل شعورا عاما يختبىء تحته المؤمنون الحقيقيون بها مع الذين يظنونها ميراثا ورثوه عن الاباء والاجداد مع هؤلاء الذين يظنونها انتصارا لدين على دين ؟

انني لا استطيع ان اقتنع ابدا بان عدو الاشتراكية هو قومي عربي حتى لو اثبت بالدلائل القاطعة انه من سلالة قحطان او عدنان ، ولا استطيع ان اقتنع ابدا بان نصير الاقطاع هو قومي عربي مهما قدم من الادلة والاسانيد ، وكذلك لا استطيع ان اقتنع بان عدو الحياد هو قومي عربي ... لقد اصبحت القومية العربية ، من خلال نموها وتحددها الفكري ، عقيدة للشعب العربي : تنادي بالوحدة وتعادي كل العقبات التي تقف في طريق المواطن العربي لتعطل تقدمه أو معرفته لنفسه مثل الاقطاع وانعدام المساواة في الميدان الاقتصادي ، ولا يمكن فصل القومية العربية عن هذه المعاني بحال من الاحوال ، وكل هذه المعاني اكتسبتها القومية العربية الى حد كبير خلال معاركها المختلفة ، واصبحت معاني تكاد تصبح من قوتها واصالتها طبيعة من طبائع القومية العربية نفسها .

هذه هي فكرة نازك الخطيرة عن القومية العربية ، وهي الفكرة التي تؤدي الى حصرها في مستواها الشعري الغامض الذي تختلط فيه المعاني وتتناقض ، انها تعني بقاء القومية العربية في مرحلة الطفولة الغضة اللينة ، تعني بقاءها قومية خيالية رومانسية : لا تتحرك ولا تعمل ولا تهدف الى شيء ، وقد كان هذا الكلام يجري منذ ستين سنة ، ولكننا الآن لا نستطيع ان نقبله بعد ان اشتد عود القومية ونضج ، ودخلت معارك وتحددت لها ملامح بارزة ... ان القومية تسمو ولا تنقص بتحولها الى عقيدة ، وعلى هذا المستوى ينبغي ان نفهمها ونحرص عليها .

النقطة الثانية الخطير التي اثارتها نازك تتمثل في قولها « لماذا تخلط كل الخلط بين القومية العربية والدولة العربية ؟ اننا عرب سواء اقامت الدولة العربية الموحدة ام لم تقم وذلك لان العروبة مستقلة تمام الاستقلال عن شكل الدولة او الدول التي تقوم في داخل نطاقها » .

وفي اعتقادي ان نازك بهذا الكلام تلتقي ـ دون قصد فيما اعتقد ـ بجماعة لا تحب هي ان تلتقي بهم ... والا افليس هذا الكلام هو نفسه ما ردده الشيوعيون في العراق بعد ثورة ١٤ يوليو ؟... لقد كانوا يقولون ان القومية العربية شيء ، والوحدة العربية شيء آخر ، كانوا يقولون ان القومية العربية المتحررة لا تحتم ابدا قيام وحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة ... والفصل بين القومية العربية والدولة العربية سواء جاء على لسان انسانة لا يمكن ان يتطرق الشك في اخلاصها لقوميتها مثل نازك او جاء على لسان آخرين لهم هوى وغرض ... هو كلام خاطىء لا يتفق مع الحقيقة .

ان القومية العربية والدولة العربية وجهان لحقيقة واحدة ، والقومية العربية هي الدولة العربية في المجال النظري ، والدولة العربية هي القومية العربية في ميدان العمل والتطبيق ، والخيط الذي يربط بينهما يمكن رؤيته واكتشافه بسهولة ، ويجب التمسك به دائما .

ان تجزئة الوطن العربي قد كان لها نتائجها الخطيرة على الاحساس القومي نفسه ، ففي مصر استطاع الاستعمار ان يعزل هذا الجزء العربي عن الاجزاء الاخرى ، وقد ادى هذا الوضع الى ضعف الشعور القومي عند المصريين لفترة طويلة ، بل لقد ادى الى ان تبنى بعض المفكرين افكارا مناقضة للقومية العربية ونادى بخطوات عملية للتخلص من الارتباط بالتراث العربي والتاريخ العربي ، ولم يكن كل هؤلاء المفكرين خاضعين لتأثير الاستعمار بل كان البعض صادرا عن فكرة خاطئة ولكنها مخلصة ، لقد كان هؤلاء المفكرون يستنتجون افكارهم من رؤيتهم للواقع، ومن رغبتهم في الانتساب الى حضارة قوية كحضارة الغرب ، وطالب هؤلاء المفكرون باحياء الفرعونية ، وطالبوا باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية ... وباختصار طالبوا بتحويل مصر الى جزء من اوروبا ، وقد ادت هذه الحركات كلها الى اضعاف الفكرة العربية في مصر حتى قامت ثورة ١٩٥٢ ، فأنقذت الفكرة العربية من الغرق في بحر العزلة والانطواء ، وسرعان ما ربطت الثورة الجديدة بين الدولة العربية والقومية العربية وبذلك استطاعت ان تعيد للفكرة العربية في مصر ازدهارها الذي يفوق عشرات المرات ما كان عليه الامر قبل الثورة.

ثم اليس من البديهيات ان مأساة فلسطين تعتبر جرحا ينزف باستمرار في جسد القومية العربية ، وان هذا الجرح قد حدث لان فلسطين كانت دولة عربية صغيرة ، ولولا يقظة العرب ، ولولا اكتشافهم، ان القوة الوحيدة التي تستطيع ان تضمن للقومية العربية قوتها واستمرارها هي الدولة العربية الواحدة لاستطاعت سرائيل بدون جدال ان تقضي قضاء نهائيا على العرب في فلسطين كما قضى الاوروبيون المهاجرون على الهنود الحمر في أمريكا !

ان القومية العربية تقوم على اساس من الشعور العميق في نفوس المواطنين ، ولكن الخلاف بين النظرة الخيالية التي تتبناها نازك والنظرة العلمية التي ادعو الى الايمان بها ، هو ان النظرة الاولى تؤمن بان القومية مبنية على اساس من الشعور الخالد الذي لا يمكن اقتلاعه بحال من الاحوال ... وهذا غير صحيح ، فأصالة الشعور القومي وعمقه يمكن ان يزولا اذا انتسبا الى قومية ضعيفة من الناحية العملية .

ان الارتباط بين القومية العربية والدولة العربية هو ارتباط عضوي، والتفرقة بينهما تؤدي الى اضعاف الشعور القومي وتعريضه للزوال، ولتتصور اسرة كبيرة تفرق افرادها في بلاد بعيدة وانقطعت الصلة بينهم واصبحوا مجموعة من الوحدات الصغيرة الضعيفة بعد ان كانوا وحدة واحدة قوية متماسكة ... ان الوحدات الصغيرة سوف تذوب وتتلاشى في وحدات اخرى قوية قد تحمل من الصفات والخصائص ما يتناقض تماما مع الصفات الاساسية للاسرة ، وبدون شك سوف تتلاشى هذه الصفات الاساسية نفسها .

تلك حقائق الحياة التي ينبغي ان نعترف بها ، وقد تكون هذه الحقائق قاسية ، ولكن يجب ان نعترف بها ، ونخرج من نظرتنا الخيالية الرومانتيكية التي تتبناها نازك ، والتي تحمل هوى وحبا مخلصا ،ولكنها سوف تتكسر وتنهزم امام الوقائع الموضوعية . ولتعذرني نازك عن استخدام هذه العبارات ... ولتعذرني نازك مرة اخرى اذا قلت لها ان محنة العراق القومية قد استندت استنادا كبيرا الى افكار من هذا النوع الذي تردده ، ولقد كان هناك زعيم مخلص له دور كبير في الثورة ، وهو الان يعيش في ظلام السجن ، ولقد حدث الجانب الاكبر من هزيمته بسبب افكاره الخيالية ، وعدم لجوئه الى التخطيط العلمي لمعرفة الاتجاه الصحيح للعمل القومي ، ولمعرفة الاتجاه المضاد الذي يقف في وجه

القومية العربية والذي كان من السهل اكتشافه ومعرفته لو خرج ذلك الزعيم ورفاقه من سحر الخيال والوهم والرومانسية الى خشونة النزعة الموضوعية الواضحة المحددة .

ولم يجد هذا الزعيم بالطبع سندا كافيا من المفكرين القوميين ، فلم يقدموا اليه خطة ، ولم يضعوا امامه تفسيرا صحيحا للموقف ...وكانت تجربة كبيرة بالنسبة للحركة القومية تجربة علمنا ، ويجب ان نستفيد منها والا جناية كبيرة عى انفسنا ، ولم يكن الشعور القومي المتحمس ينقص الثورة في العراق ، بل كان ينقصها التنظيم الموضوعي لهذا الشعور القومي الجارف الذي لم تكن قوته مفيدة في الوصول الى الهدف المنشود .

ترى هل تبينت نازك لماذا اتردد في الموافقة على الافكار العامة وعلى طريقة التفكير الشعري الذي تعالج به تلك المشاكل الهامة الحساسة بالنسبة للامة العربية ؟... لقد وصفتني نازك بانني استخدم وسائل ارهابية في مناقشتها ، لانني طالبتها ان تعتمد على مزيد من الثقافة السياسية في شرح القضية القومية وتفسيرها ... فهل يعتبر من الإرهاب ان ادعو نازك وغيرها من المثقفين والمفكرين الى خوض المعركة الجديدة في حياتنا اليوم ؟ ان المواطن العربي ليس بحاجة الى مزيد من دفقات الحماس بقدر ما هو بحاجة الى مزيد من الوعي والوضوح ، ان الشعور القومي واضح ملتهب تمتزج فيه امنيات المستقبل بالجراح والمآسي التي عشناها في الماضي ونعيشها في الحاضر ، ولكن المشكلة هي ان القومية العربية كفكرة موضوعية بحاجة الى مزيد من التحديد والدراسة والفهم . ان المقال الذي قدمته نازك بعنوان « القومية العربية والحياة » شبيه بجهد يبذله انسان لحفر بئر مياه في منطقة مليئة بالآبار الفائضة على الحاجة ، وهناك في نفس الوقت منطقةاخرى تشكو الظما وتصرخ لانها بحاجة الى قطرة ماء ... فماذا لو تخلف عن العمل كل انسان قادر على العمل ؟ وماذا لو ذهب القادرون ، ونازك قادرة ، لحفر الابار الجديدة في منطقة الابار الفائضة على الحاجة ... ان هذا هو الاعتراض الذي أقدمه على طريقة نازك في التفكير بالاضافة الى الخلافات الموضوعية المحددة بيني وبينها .

لقد كنت اتمنى دائما ان تصبح نازك بالنسبة للقومية العربية ما كانت بياترس وب بالنسبة للحركة الاشتراكية الانكليزية : لقد فكرت بياترس وب على نطاق واسع وقامت بدور كبير في التنظيم الفكري لهذه الحركة فكانت علما باهرا من اعلام الحركة الاشتراكية العالمية ، وفي طريق العدل يذكرها العادلون والباحثون عن المساواة والذين يكرهون الظلم الاجتماعي ... وكم نحن بحاجة الى انسانة عندها مواهب نازك لتقوم بعمل مشابه بالنسبة للحركة القومية ، ولن يقضي الجهد العلمي على مواهبها الشعرية ، بل سوف يستفيد هذا الجهد من مواهبها ويفيد تلك المواهب ... لقد بدأ سارتر كاتبا لا يعرف غير الجمال الادبي ، وهو اليوم يستخدم هذا الجمال الادبي في مناقشة المشاكل الانسانية الكبرى مثل مشكلة الجزائر ، وهو يستخدم الارقام والحقائق بكثرة في مقالاته ، ولكنها مع ذلك مقالات جميلة ، بل لقد اصبح الجمال في هذه المقالات قوة تأثيرية كبيرة بالنسبة للجماهير القارئة ، انه يحمل القضية بوضوحها الى قلوب الناس على جناح من الجمال الادبي فتكون النتيجة هي المعرفة الممزوجة بالانفعال الحقيقي العميق .

لقد هاجمت نازك المثقفين وقالت انها تكتب للمواطنين البسطاء ، ولتصدقني نازك ان احدا من هؤلاء البسطاء لا يقرأ لها ولا يهتم بما تكتبه هي او غيرها ... انها تتكلم عن الفلاحين وعما فيهم من اصالة ، والواقع انني لا اختلف معها في ذلك ، فكاتب هذا المقال كانت امه فلاحة لا تقرأ ولا تكتب ، وما زال اعمامه واخواله يعملون في الارض ، وكان هو نفسه قبل ان يتعلم بل وخلال تعليمه يعمل في الارض كفلاح عادي ... وهو يعلم ما في حياة الفلاح من خصوبة واصالة ، ولكنه يعلم ايضا ما في هذه الحياة من مرارة وانعدام وعي ، وما هي بحاجة اليه من مساعدات يقدمها المثقفون المخلصون ، ان حياة الفلاح العربي سيئة للغاية ، وهي ليست نموذجا صالحا يصح لنا ان نمجده ونعتبره شيئا مثاليا بل ان من الواجب ان نطالب بتقييدها وتخليصها من عناصر الماساة التي تحيط بها .

اننا بحاجة الى ان نخرج من نطاق الخيال الى نطاق الفهم الموضوعي، وقوميتنا العربية بحاجة الى انقلاب اجتماعي وانقلاب اقتصادي ، وعلى المثقفين المخلصين ان يخرجوا من نطاق عبادة « الجمال الخالص » ، الى الاهتمام بالجمال الذي يخدم حقائق الحياة ، ويوم نصل الى مجتمعنا المثالي الجميل الذي نحلم به ، حيث يتوفر الخبز للجميع ، وتقل الازمات المادية والمعنوية التي تهين كرامة الانسان وتحط من شانه ... يومها ، وسوف يجيء ذلك اليوم بدون جدال ، نستطيع ان نعبد الجمال كما نشاء ، ونستطيع ان نملأ حياتنا بالكلمات الجميلة وحسب ،ونستطيع ان نفكر في زراعة الورود ، الى جانب سنابل القمح ... اما الان فالقضية حاسمة ولا تحتاج الى مساومة او خيال ، بل هي بحاجة الى معرفة وعلم ونهج واضح .. فاذا كان هذا الرأي يعتبر ارهابا ، فانه لشرف لي ان اكون ارهابيا ... مخلصا في الارهاب !

بقيت كلمة أخيرة وصغيرة

لقد هاجمت نازك الملائكة « كولن ولسن » وقالت انه يسمم ثقافة شبابنا ... والواقع ان هذا الحكم هو ايضا خطأ وتسرع ، فكولن ولسن لا يسمم ، ولكنه يطهر ، وكولن ولسن ساخط مثلنا على حضارة الغرب يلمح ما فيها من نقص في القيم وفراغ معنوي عميق ، وهو في كتبه « انما يرثي » الغرب ويتطلع الى حضارة جديدة ، وانسانجديد، ويأسه الظاهري يكشف في داخله عن تفاؤل عميق وأمل عريض ...واذا كان هناك نوع من المثقفين يثير الضيق بما فيه من ادعاء وتظاهر ، فان كولن ولسن ليس من هؤلاء المثقفين ، بل هو كاتب متواضع مخلص في نقده للغرب وسخطه عليه ... ونازك معها كل الحق في احتقار المثقفين الذين يعيشون على الادعاء والغرور والتظاهر واحتقار الحياة واحتقار « الواطن العادي » الذي هو اليوم بدون جدال بطل حياتنا والمكافح الاول في ميداننا سواء كان ذلك في الحقل او في المصنع او في مكاتب الموظفين ... هذا النوع من المثقفين عندنا وفي أي مكان اخر يستحق الاحتقار والازدراء والمقاومة ... ولكن هذا لا يعني ان الثقافة دائما قرينة للتعقيد والمرض النفسي ، بل هي في الاصلوسيلة لرقي الانسان وارتفاعه الى المستوى الايجابي الذي يفيد الناسوالحياة ... وهذا ما نتمناه للثقافة والمثقفين في بلادنا .

القاهـرة — رجاء النقاش

طبعت على مطابع
دار الفـدللطباعة والنشر
بيروت تلفون ٢٢٩٢١